معركة شقحب

سنة ٧٠٢ هـ

إن من الظواهر الواضحة في التاريخ الإسلامي ارتباط حركة الجهاد في سبيل الله بنشاط العلماء وجهودهم، بحيث إنه كلما نشط العلماء والتف حولهم الولاة والأمة كلما كان النصر قريبًا والظفر على الأعداء ممكنا.

وتتجلى هذه الظاهرة في جهاد المسلمين للمغول، فعلى الرغم من قوتهم وشراستهم إلا أن المسلمين استطاعوا إيقاف زحفهم وهزيمتهم في معركة عين جالوت على يد المماليك، ثم مر زمان على المسلمين، ضعفت فيه تلك الصلة أو كثر الخلف بينهم فاستظهر عليهم المغول مرة أخرى وكان ذلك في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

ففي سنة تسع وتسعين وستمائة هاجم المغول بلاد الشام مرة أخرى بقيادة الطاغية غازان، وكانوا حينئذ قد تظاهروا بالإسلام فتسموا بأسماء المسلمين والإسلام منهم براء، وسقطت مدن الشام في أيديهم الواحدة تلو الأخرى فأشاعوا فيها القتل والدمار والاغتصاب، يساعدهم ويشجعهم طائفة من النصارى الموتورين الذين تولوا كِبَرَ هذه الجرائم، ولا عجب فملة الكفر واحدة ومهما تشتتوا واختلفوا إلا أنهم في عداء هذا الدين متحدين.

وعلى الرغم من نهوض المماليك لصد هذا العدوان إلا أنهم هزموا هزيمة قاسية في معركة الخزندار.

ومن هنا بدأ دور العلماء، ووضح أثرهم يحركهم ويدفعهم عالم فذ وبطل شجاع هو شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بل إنه ربما وقف وحده في هذا الميدان حينما يتخلف الآخرون، فأصبح هو القائد الذي يلتف حوله المسلمون ضد المغول، ضبط الأمن في دمشق، ونظم الحراسة على أسوارها، وضرب على أيدي المفسدين، ومنع المعاصي من أن تنتشر في المجتمع.، ثم بعد ذلك كله

انطلق إلى طاغية المغول يجادله ويحاوره ويمنعه من دخول دمشق لكي لا يصيبها ما أصاب أخواتها من مدن الشام، ومن ذا الذي يستطيع أن يجابه الطغاة غير العلماء، ويصف المؤرخون ذلك اللقاء ويروي شاهد العيان حديث ابن تيمية لغازان، ذلك الحديث المفعم بالإيمان الذي جعل بطش الطاغية ينقلب احترامًا وتبجيلاً لهذا العالم، ويطلب غازان من ابن تيمية أن يدعو له فيتوجه بيديه إلى السماء مناجيا ربه بأن ينصره إن نصر الإسلام ويخذله إن خذل الإسلام ويتخوف الحاضرون أن يصيبهم شيء من دم ابن تيمية الذي تطاول على خان المغول ولكنه بالحق ولذا أيده الحق وحقن دمه.

وفي دمشق يعود ـــ رحمه الله ـــ ليستنهض الهمم ويعلن الجهاد، ويصدر الفتاوى بأن المغول مارقون من الإسلام فهم من جنس الخوارج ويصرح بذلك ويقول: لو رأيتموني معهم وعلى رأسي مصحف فاقتلوني، فتزول بذلك الشبه، ويخرج إلى جند دمشق يثبتهم ويقوي عزائمهم ويعدهم بالنصر والظفر ويحلف على ذلك فيقولون قل إن شاء الله فيقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا يتأول قول تعالى: ﴿**ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور**﴾ [٦٠] سورة الحج.

ولننظر إلى هذا العالم الشجاع كيف يدعو السلطان المملوكي للجهاد ويحثه عليه فقد سار إليه، في القاهرة والتقاه، وقال له: «إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطانًا يحوطه ويحميه، ويستغله في زمن الأمن، ولو قُدّر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر فكيف وأنتم حكامه وهم رعاياكم وأنتم مسؤولون عنهم»، ثم عاد إلى دمشق يبشرهم بقدوم السلطان ويحثهم على الجهاد ويبين وجوبه وفضائله.

وفي رمضان سنة اثنتين وسبعمائة هاجم المغول بلاد الشام في جيش كثيف، ولكن الأوضاع هذه المرة قد تغيرت، وجهود الشيخ ابن تيمية قد أثرت في الناس فثبتوا أمامهم ودافعوهم وحينما علم السلطان الناصر بذلك خرج على رأس

جيشه ومعه الخليفة العباسي المستكفي بالله ووصل إلى الشام وصمم المسلمون على الجهاد فإما النصر و إما الشهادة.

وخرج أهل دمشق يقودهم عالمهم الفذ ابن تيمية لابسا سلاحه مع جماعة من العلماء والتقى جيشَ المماليك في شقحب إحدى نواحي دمشق فاتحد معه، ووصل المغول إلى هذا المكان واصطف الجيشان وسار السلطان والخليفة بين الصفوف يشجعون الناس ومعهم القراء يقرأون القرآن، وكان الخليفة يقول: «يا مجاهدون لا تنظروا لسلطانكم قاتلوا عن حريمكم وعلى دين نبيكم ﷺ» فبكى الجند وتواصوا على الثبات.

أما ابن تيمية فيبشرهم بالنصر ويأمرهم بالفطر من الصيام ليتقووا به على القتال. وفي يوم السبت الثاني من رمضان سنة اثنتين وسبعمائة التحم الجيشان واستمر القتال إلى اليوم الثاني فانهزم المغول وتم النصر للمسلمين بعد أن أبلى المسلمون بلاءً حسنًا، وقتل من المغول عدد كبير وأسر منهم كذلك.

وهكذا كان النصر ثمرة الجهاد بعد أن أعد له المسلمون واستعدوا معنويا وماديًّا وحقق الله عز وجل وعده لعباده المؤمنين إن هم صدقوا.

رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية فقد كان بحق قائد المسلمين وبطلهم في وقعة شقحب.

وكان لهذه المعركة نتائج مهمة فقد كشف الله بهذا النصر عن المسلمين غمة عظيمة، يقول الذهبي: «فوالله ما ذقنا يوما أحلى منه ولا أمر من الذي قبله».

المصادر:

١ ـ الذهبي: دول الإسلام جـ ٢ ص ٢٠٨

٢ ـ ابن كثير: البداية والنهاية: جـ ١٤ ص ٢٣

٣ ـ الحافظ عمر بن علي البزار: الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٦٣ تحقيق صلاح الدين المنجد.

فتح جزيرة قبرص في عهد المماليك
سنة ٨٢٩ هـ

مخرت سفن المسلمين عباب البحار للجهاد ونشر دين الله في كل منطقة يصلون إليها، كما طوت خيلهم فلوات الأرض حتى وصلت أقصاها.

وكانت جزيرة قبرص، من المناطق التي فتحها المسلمون منذ عصر مبكر حيث وصلها معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه سنة ٢٨ هـ لتكون بعد ذلك خاضعة للمسلمين تدفع لهم الجزية كل عام، وظلت كذلك مدة من الزمن حتى إذا ضعف المسلمون بعد ذلك طمع فيهم الأعداء من نصارى أوروبا فغزوهم بجيوش جرارة متتابعة وسقطت بعض المناطق الإسلامية في أيديهم ومنها جزيرة قبرص.

والحقيقة أن هذه الجزيرة بموقعها الاستراتيجي شرق البحر الأبيض المتوسط ظلت طيلة الحروب الصليبية قاعدة ينطلق منها الصليبيون لمهاجمة العالم الإسلامي، وأصبح حكامها أكثر النصارى تعصبًا للحروب الصليبية ورغبة في استمرارها، ولذا ظلوا يسعون لدى ملوك أوروبا ويطلبون منهم إرسال الحملات العسكرية لتحطيم العالم الإسلامي.

وفي سنة ٧٦٩هـ قاد ملك قبرص حملة صليبية اتجهت نحو الإسكندرية وهاجمها في غفلة من حكامها واستطاع دخولها فأعمل السيفَ في رقاب المسلمين وقتل وأسر ونهب، وكانت مقتلة عظيمة لم يصب هذا الثغر بمثلها قبل ذلك، وعاد هذا الملك الصليبي الحاقد على الإسلام محملا بما نهب من المسلمين.

وظل حكام المماليك في مصر يتحينون الفرصة للأخذ بالثأر والقضاء على خطر هذه الجزيرة ومعاقبة حكامها.

وفي عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباي (٨٢٥ ـ ٨٤١هـ) عقد هذا السلطان العزم على فتح هذه الجزيرة وأخذ يستعد لذلك بتجهيز المراكب

وتجميع العساكر، وأرسل لها ثلاث حملات متتاليات في ثلاث سنوات ابتداءً من سنة ٨٢٧هـ وكلُّها في شهر رمضان.

كان الحملتان الأوليان لغرض الاستكشاف، استطاع المسلمون من خلالهما التعرف على الجزيرة ومدى قوة حكامها، كما حققوا انتصارات عليهم وعادوا محملين بالغنائم والأسرى.

أما الحملة الثالثة: فكانت في شهر رمضان سنة ٨٢٩هـ وقادها أربعة من أمراء المماليك انطلقت في عدد كبير من المراكب نحو الجزيرة، تحمل أعدادًا عظيمة من المجاهدين، وقد تخلف عدد أكبر لم يجدوا ما يحملهم فحزنوا لذلك حزنًا شديداً.

يقول المؤرخ المعاصر لذلك الفتح ابن تغري بردي: «وعظم ازدحام الناس على كُتّاب المماليك ليكتبوهم في جملة المجاهدين في المراكب المعيَّنة، حتى أنه سافر في هذه الغزوة عددٌ من أعيان الفقهاء، ولما أن صار السلطان لا يُنعم لأحد بالتوجه بعد أن استكفت العساكر، سافر جماعة من غير إذن، وأعجبُ من هذا، أنه كان الرجل ينظر في وجه المسافر للجهاد يعرفه قبل أن يسأله لما بوجهه من السرور والبشر الظاهر بفرحه للسفر، وبعكس ذلك فيمن لم يعيَّن للجهاد، هذا مع كثرة من تعين للسفر من المماليك السلطانية وغيرهم، وما أرى هذا إلا أنّ الله تعالى قد شرح صدرهم للجهاد وحببهم في الغزو وقتال العدو ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ولم أنظر ذلك في غزوة من الغزوات قبلها ولا بعدها».

وكان ليوم خروج المجاهدين نهارٌ يجل عن الوصف، اجتمع الناس لوداعهم وابتهلوا إلى الله تعالى أن ينصرهم، ووصلت السفن الإسلامية جزيرة قبرص، ونزل المجاهدون يفتحون المدن والقرى كل ذلك في شهر رمضان المبارك، وحلت الهزائم بالنصارى واستنجدوا بملوك أوربا فوصلت إليهم الإمدادات وتجمعت جيوشهم والتقى بها المسلمون في معركة حاسمة وكانت أعداد النصارى أضعاف عدد المسلمين، والمسلمون مع قلتهم ويسير عددهم في ثبات إلى أن

نصر الله الإسلام وأُسر ملك قبرص المدعو جانوس وركب المسلمون أقفية النصارى يقتلون ويأسرون حتى أن قتلى النصارى يجلون عن الحصر. وتم فتح العاصمة وتوالت الانتصارات وكمل فتح الجزيرة. ثم أقام المجاهدون وأراحوا أبدانهم سبعة أيام، وهم يقيمون شعائر الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح وحمد الله على هذا الفتح العظيم الذي لم يقع مثله في الإسلام من يوم غزاهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

وعاد المسلمون إلى مصر يحملون الأسرى وعلى رأسهم ملك قبرص وفرح المسلمون بذلك فرحًا عظيما، وحينما علم بذلك السلطان المملوكي بكى من شدة الفرح، وبكى الناس لبكائه، وصار يكثر من الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى، وانطلقت ألسن الشعراء تشيد بهذا الفتح العظيم يقول أحدهم:

بشراك يا مُلْكَ المليك الأشرفي بفتوح قبرس بالحسام المشرفي
فتح بشهر الصوم تم له فيا لك أشرفٌ في أشرفٍ في أشرفِ
فتحٌ تفتحت السموات العلى من أجله بالنصر واللطف الخفي
والله حفّ جنوده بملائك عاداتها التأييد وهو بها حفي

وهكذا انتصر المسلمون في هذا الشهر العظيم بعد أن صدقوا في جهادهم واستعانوا بالله على أعدائهم فوفقهم ونصرهم رغم قلة عددهم وكثرة أعدائهم.

المصادر:

١ ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٦٧، ٢٧٥، ٢٨٧.

٢ ـ المقريزي: السلوك جـ ٤ ق٢ ص ٦٩٤ وما بعدها.

٣ ـ ابن إياس الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ ٢ ص ١٠٠ وما بعدها.

فتح البوسنة والهرسك

سيكون الحديث عن منطقة من مناطق العالم الإسلامي تواجه أعظم هجمة صليبية في العصر الحديث، حيث يقضى على المسلمين بالقتل والأسر والتهجير، وحيث يموت الآلاف بأيدي الصليبيين أو نتيجة الجوع والعطش والمرض، حيث هم محاصرون منذ سنوات.

إنها منطقة البوسنة والهرسك، نعود إليها عبر سنين مضت لنعرف كيف وصلها الإسلام وانتشر فيها، وكيف انتصر المسلمون على النصارى الصرب في ذلك الوقت، وضموها إلى بلادهم.

في ذلك التاريخ كانت الدولة العثمانية في أوج قوتها وازدهارها حينما اكتسحت أوربا الشرقية فتهاوت مدنها ودولها تحت ضربات الجيش العثماني المسلم، ووصلت طلائع هذا الجيش إلى مدينة فيينا لتحاصرها فترة من الزمن، ويتسابق ملوك أوربا بإعلان الولاء والانقياد للسلاطين العثمانيين، في ذلك التاريخ كان هَمُّ هؤلاء السلاطين الجهاد في سبيل الله ونشر كلمة التوحيد في كل مكان.

لنتوقف قليلاً في عهد السلطان مراد الأول بن السلطان أورخان الغازي، فقد كان من السلاطين العظام الذين جاهدوا في سبيل الله ففتحوا المناطق الواسعة من أوربا.

ولد هذا السلطان سنة ست وعشرين وسبعمائة للهجرة، ونشأ على كريم الأخلاق، ولما شب اشترك مع والده في جهاد اليونان، فأظهر بسالة لا توصف وإقداما لفت الأنظار، وبعد وفاة والده تولى الحكم سنة إحدى وستين وسبعمائة هجرية فقضى كل سني حكمه في جهاد مستمر.

كانت أول أعماله الجهادية فتح مدينة «أدِرْنَه» فجعلها عاصمة لدولته وظلت كذلك حتى فتحت القسطنطينية، ثم ساق جيشه نحو البلقان فتبوأوا مدنها

وافتتحوا حصونها، وأبرم معاهدة مع ملك اليونان، بيد أن هذه المعاهدة لم تستمر طويلاً؛ حيث نقضها اليونان، وهكذا استطاع السلطان مراد الأول أن يستولي على جزء كبير من أوربا الشرقية، وأن يحيط بالقسطنطينية من جميع الجهات.

وهنا اضطرب ملوك أوربا النصارى وارتعدت فرائصهم، وأدركوا عظيم الخطر الذي تشكله هذه الدولة المسلمة الفتية، فطلبوا من البابا «أوربانوس» الخامس أن يأمر جميع الدول النصرانية أن تتحد للوقوف في وجه المسلمين، وإخراجهم من أوربا قبل أن يجتازوا حدود البلقان وحينئذ لا يستطيع أحد الوقوف في وجههم فيكتسحوا أوربا كلَّها.

ولبَّى البابا استغاثتهم وكتب لجميع ملوك أوربا النصارى يأمرهم بالتأهب لمحاربة المسلمين، وأن يشنوا حربًا دينية للحفاظ على النصرانية في وجه الإسلام ولم ينتظر الملك أوروك الخامس ملك الصرب وصول الإمدادات من أوربا، بل استعان بالدول القريبة منه وكوّن جيشا جرارًا من اليونان والصرب والمجر والرومان، وسار بهم إلى عاصمة العثمانيين أدِرْنة فحاصرها، وكان السلطان مراد خارجها فعاد مسرعًا بجيشه، وهاجم النصارى بغتة حيث فوجئوا بالتهليل والتكبير وسيوف المسلمين تعلوهم فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى ولّوا الأدبار تاركين الثرى مخضبا بدمائهم، وهكذا فشلت محاولة الصرب هذه ضد المسلمين.

وكان من نتيجة هذه المعركة أن تسابق حكام البلقان لإعلان الولاء للمسلمين ودفع الجزية لهم.

وفي سنة إحدى وثمانين وسبعمائة تحالف ملك الصرب الجديد «لازارجر بلينانوفتش» مع ملك البلغار على مهاجمة المسلمين، لكنهما بعد عدة مناوشات تحققا من عجزهما عن هزيمة العساكر الإسلامية، فأبرما صلحًا مع السلطان مراد، على أن يدفعا له خراجًا سنويًّا.

ولم يستمر هـذا الصلح طـويلاً فقـد نقضه النصـارى، وبدأوا يعـدُّون العدة لمحاربة المسلمين، إلا أن العثمانيين لم يمهلوهم فاجتاحت جيوشهم بلاد البلغار وهزمت ملكها واحتلت مدُنها، وانتهى الأمر بأسر ملك البلغار.

ولما علم ملك الصرب لازار بذلك بدأ يستعـد لمواجهة المسلمين فألَّف جيشًا من الصرب والبوسنـة والهرسك والألبان والأفلاق والبُغدان وتعـاهد الجميع على محاربة المسلمين والاستيـلاء على الدولـة العثمانية، وبلغ الخبر مسـامع السلطان مراد فـألَّف مجلسا للشـورى والنظر في الأمر، لكـن ولده بـا يزيد هتـف قائلاً في المجلس: «الحرب الحرب والقتـال القتـال» فأبطل كل مشـورة، ودقَّت طبـول الحرب وسار الجيش الإسـلامي إلى الأعداء فـالتقاهم في سهل «قـوص أوه» سنة إحـدى وتسعين وسبعمائة ونشـب القتـال بين الجانبين ووثب المسلمـون على النصارى والتحمـوا معهم في القتال التحـاما لم يعـد يرى معـه إلا جماجم طائرة وفرسان غائرة، ودويّ سلاح يـدك الجبال الشامخة، وبقيت الحرب بينهما سجالاً مـدةً من الـزمن دافع الصليبيـون الصرب خـلالها دفـاعًـا مستميتًـا، وتنـاثـرت الرءوس، وأزهقت النفوس، وفي أثنـاء المعركة انحاز صهـر ملك الصرب بفرقته إلى المسلمين، ودارت الدائرة على الصربيين، وجرح ملكهم لازار، ثم وقع أسيرًا في يد المسلمين، وانتصر المسلمون على الصربيين وكانت من المعارك الحاسمة في تاريخ أوربا الشرقية، وظلَّ ذكرها شهيرًا في أوربا بأسرها، وزال استقلال الصرب وخضعت كل بلادها للمسلمين، كما فقدت البلغار استقلالها من قبل.

وبعـد المعـركـة أخـذ السلطـان مـراد يتمشى بين الجثث وينظـر إليهـا بعين الاندهـاش، إذ قام من بينهـا جندي صربي اسمـه «ميلوك كوبلـوفتش» فطعن السلطان بخنجر طعنة قاضية، وسقط ـ رحمه الله ـ ليسلم الروح بعد قليل.

وهكذا شهد سهل كوسوفـو بولجي معركة (قوص أوه) الحاسمة بين المسلمين والصرب، وانتصر المسلمون انتصارًا عظيمًا، وأخـذ الإسلام ينتشر في تلك البقاع

حتى تحولت مناطق كاملة إلى الإسلام كما هو الحال في البوسنة والهرسك وكوسفو وغيرها .

وكما يشهد هذا السهل انتصار المسلمين ، فقد شهد أيضا غدر الصرب الذي ذهب ضحيته سلطان المسلمين مراد ، فمات أوائل شهر رمضان من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة من الهجرة ـ رحمه الله ـ وسجل التاريخ منذ ذلك الوقت و إلى يومنا هذا أن الصرب لا يلتزمون بعهد ولا ميثاق ، ولا يعرفون في تعاملهم مع المسلمين إلا لغة القوة والبطش وسفك الدماء .

واليوم وكما غدر الصرب وأعوانهم بقائد المسلمين في تلك المعركة يغدرون بالمسلمين جميعًا في البوسنة والهرسك ، فيقتلون ويأسرون ويغتصبون لا يردعهم خلق ولا دين ، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة ، والعجب كل العجب أن يقف المسلمون جميعا موقف المتفرج على هذا كله .

openkandl.com

فتح بلاد الصرب وعاصمتها بلغراد
سنة ٨٢٧ هـ

سنعود إلى منطقة عزيزة علينا، أهلها إخوة لنا، ترتفع في مدنها وقراها المساجد والمآذن، وقد كانت تتردد في جنباتها أصوات المؤذنين رافعة اسم الله عز وجل، منادية لأعظم شعائر الإسلام، أما اليوم فقد أُسكتت تلك الأصوات، وهدمت هاتيك المآذن، وقصفت تلك المساجد أما الإخوة فيها، فالبعض توفاه الله قتلا أو جوعا أو عطشا أو مرضًا، أو تحت تعذيب أعداء الإسلام، والبعض يئن في معسكرات أُعدت لاعتقال المسلمين، فلا ترى فيها إلا أشباحا وهياكل عظمية تشهد على جاهلية أوربا، بل الغرب أجمع في القرن العشرين، وقسم لاجئ، تشرد في بلاد الله الكافرة يعاني ما يعاني من غربة وتنصير وجوع. أما نساء المسلمين فلا تسأل عن الاغتصاب والقهر والتعذيب. وأما الأطفال فقد تناثروا شرقًا وغربًا تتلقفهم أيدي النصارى واليهود ليُسلَخوا من دينهم الحنيف. هذه مأساة بل مآسٍ نسمعها في كل يوم، ونبصرها في كل يوم فتتقطع لها قلوب المؤمنين ألما وحسرة.

أظنُّك أخي القارئ الكريم قد عرفت هذه البلاد وعرفت هؤلاء الإخوة. إنها بلاد البوسنة والهرسك، حيث تسيل دماء المسلمين، وتتناثر أشلاؤهم وتملأ الفضاءَ استغاثاتُهم وأنينهم وصريخ أطفالهم، وتأوهات مرضاهم. هذه صورة محزنة لإخواننا المسلمين تدمع العيون، بل تدمي القلوب في عصر يزعمون أنه عصر التقدم والحضارة، وعصر الحرية وحقوق الإنسان ولكنها كلمات جوفاء، وعبارات رنانة، يهدهد بها المسلمون صباحا ومساء. وحتى لا أطيل حزن القارئ الكريم سأعود به سنوات وسنوات، يوم كان للإسلام قوة تحميه، ويوم كان للمسلمين عز ومنعة.

نعود إلى عصر السلطان العثماني مراد الثاني الغازي ــ رحمه الله ـ فقد استمر

هذا السلطـان في جهاد الصرب على سنـة آبائه من قبلـه، كما أشرنا إلى ذلك فيما مضى.

بـدأ جهاده في شهـر رمضان سنـة خمس وعشرين وثمانمائة هجـرية بمهـاجمة القسطنطينية التي استعصت عليه فتركها متجها غـربا حتى وصل إلى بلاد المجر فجاهد ملكها وألـزمه بالتوقيع على معاهدة تقضي عليـه بالتخلي عن أملاكه على شاطئ نهر الـدانوب الأيمن بحيث يكون هذا النهـر فاصلاً بين الدولـة العثمانية والمجر.

ولما رأى أمير الصرب المدعو «جـورج برنكـوفيتش» أنـه لا يقوى على مقـاومة المسلمين قَبِلَ أن يدفع جزيـة سنوية قدرهـا خمسون ألف دوك ذهبي، وأن يقدم للسلطان فرقة من جنوده وقـت الحرب، وأن يزوجه ابنته، وأن يتنازل للمسلمين عن بلـدة كروشيفـاتس وسط بلاد الصرب لتكـون حصنًا منيعًـا تحتمي به القـوة الإسلامية المهيمنة على بلاد الصرب.

واستمـر هـذا الصلح حتى سنـة ثـلاث وأربعين وثمانمائة حيث عصى ملك الصرب، فكانت عاقبة عصيانه إرسال جيش إسلامي فتح مدينة سمندرية التي تبعد عن بلغراد مسـافة خمسة وأربعين كيلاً، ثم سار مراد بنفسـه فحاصر مدينة بلغراد ولكن ملك الصرب فرّ منها، واستمر الحصار مدة ستة أشهر، ولم يتمكن المسلمون من فتحها.

وفي سنة خمس وخمسين وثمانمائة هجرية توفي السلطان مراد وخلفه على الحكم في الدولة العثمانية ابنه السلطان محمد الفاتح ـ رحمه الله ـ فواصل الجهاد في سبيل الله، وعلى الـرغم من أن فتحه القسطنطينيـة هو أعظم أعمالـه، بل أعظم أعمال العثمانيين، إلا أننا لن نتحدث عنه في هذا المقام.

اتجه محمـد الفـاتح بعـد إتمام الفتح إلى بلاد الصرب، وفـرض عليهم جـزيـة سنوية مقدارها ثمانون ألف دوك ذهبي.

وفي سنة ثمان وخمسين وثمانمائة عاد إليها مرة أخرى بجيش كثيف واخترقها من

جنوبها إلى شمالها دون أن يلقى أيَّة معارضة، ووصل إلى بلغراد فحاصرها مرة أخرى، ولم يتمكن من فتحها.

وفي سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية حارب محمد الفاتح بلاد البوسنة لامتناع أميرها النصراني عن دفع الجزية فأسره هو وولده، ودانت له جمع بلاد البوسنة، وتدخل ملك المجر لأخذها من المسلمين فهزموه هزيمة شنيعة وقتل معظم جيشه، وكان من نتائج ذلك أن جعلت البوسنة ولاية من ولايات الدولة العثمانية. وأسلم أغلب أهلها وانضم ثلاثون ألفًا من شبابها إلى جيش الدولة العثمانية بعد إسلامهم وتوفي السلطان محمد الفاتح سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية بعد أن حقق للإسلام انتصارات عظيمة في أوربا، وانتشر الإسلام على يديه في مناطق شاسعة منها وانشغلت الدولة العثمانية فترة من الزمن بالحروب التي أثارها الصفويون الشيعة على حدودها الشرقية، وقد ثبت عن طريق الوثائق التاريخية أنَّ ذلك بتدبير من الأوروبيين النصارى لإشغال العثمانيين السنة وإيقاف زحفهم في أوربا فقام هذا التحالف بينهم وبين الصفويين.

على أن الأمور لم تدم لهم طويلاً إذ سرعان ما قهر العثمانيون الصفويين، ثم عادوا إلى الفتح ونشر الإسلام من جديد.

كان ذلك في عهد السلطان سليمان القانوني ـ رحمه الله ـ ففي شهر شعبان من سنة سبع وعشرين وثمانمئة هجرية أقدم ملك الصرب على قتل سفير المسلمين لديه فاستشاط السلطان لذلك غضبًا، وأمر بتجهيز الجيوش الإسلامية، وجمع كل ما يلزم من المؤونة والذخائر، وسار هو بنفسه لمحاربتهم، وأرسل فرقة من جيشه فتحت مدينة (شابتس) التي تقع شمال بلغراد، ثم سار بجيشه كله إلى بلغراد فحاصرها، ولم يدم الحصار طويلاً، إذ سرعان ما استسلم أهلها في الخامس والعشرين من رمضان، ودخلها السلطان فصلى في إحدى كنائسها صلاة الجمعة.

وصارت هذه المدينة التي كانت أمنع حصن للنصارى ضدَّ تقدم الدولة الإسلامية أكبر مساعد لهم على فتح ما وراء الدانوب.

وأعلن عن هذا الانتصار العظيم إلى جميع الولاة وملوك أوربا، وعاد السلطان سليمان القانوني إلى عاصمة الدولة الإسلامية إسلامبول، وأرسل إليه الملوك والرؤساء يهنئونه بهذا الفتح العظيم.

وهكذا استطاع المسلمون إخضاع ما يعرف سابقا بيوغسلافيا، وحاليًّا بصربيا وظلت تابعة لهم سنين عديدة حكمها المسلمون بالعدل والرحمة، مما حبَّبهم إلى رعاياها فاعتنق كثير منهم الإسلام عن رغبة وبحرية، وظلوا عليه إلى وقتنا الحاضر، حيث يعمل النصارى على قتلهم أو طردهم من تلك البلاد مع أنها بلادهم وديارهم.

المصادر:

١ ـ أحمد يوسف القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ١٢٨٢هـ.

٢ ـ محمد فريد المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية: ط ٦.

٣ ـ يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابي، دار البصائر.

جهاد المسلمين في الحبشة
سنة ٩٣٥ هـ

موعدنا مع نصر عظيم حققه المسلمون للإسلام في بقعة كانت ولا زالت موطنًا للجهاد في سبيل الله، وصلها الإسلام منذ وقت مبكر وظل ينتشر فيها وبين أبنائها حتى اعتنقه أكثرهم، فكان منهم الدعاة والمجاهدون الذين حملوا لواء هذا الدين ينشرونه ويدعون له بين بني قومهم.

إنها بلاد الحبشة، دار الهجرة الأولى، التي آوت المسلمين المهاجرين فترة من الزمن.

لقد انتشر الإسلام على يد هؤلاء المهاجرين، ثم توافد المسلمون إلى تلك البلاد من الحجاز واليمن، واستقروا فيها، وحملوا معهم الإسلام وتعاليمه، وأخذ ينتشر انتشارًا سلميًا هادئًا، حتى إذا مضى قرن ونيف من الزمان تحول الساحل الحبشي إلى الإسلام وأصبح المسلمون هم سادته وحكامه.

ولم يتوقف المدُّ الإسلامي عند الساحل فقط، بل تعداه إلى الداخل في عمق الهضبة الحبشية، حيث أصبح سكان تلك المناطق من المسلمين، وتحولت قبائل كثيرة من الأحباش إلى الإسلام.

وبمرور الوقت اتضح الكيان السياسي للمسلمين في الحبشة وكونوا لهم سبع ممالك إسلامية، عرفت بممالك الطراز الإسلامي، وقد تولى حكام هذه الممالك الإسلامية عبء الجهاد في سبيل الله في الحبشة.

وإلى جانب هذه الممالك تقوم دولة نصرانية تتخذ من مدينة أكسوم عاصمة لها وهي الدولة التي استضاف واحد من حكامها الأوائل جموع المهاجرين المسلمين، إلا أن حكامها المتأخرين أظهروا العداوة للمسلمين وبدأوا يحاربونهم ويفتنونهم عن دينهم ويضيقون عليهم، وإذا كان المسلمون في أول الأمر قد كفوا عن مهاجمة الحبشة ولم يمدوا إليها موجة الجهاد الإسلامي، فإنهم اضطروا أخيرا

إلى إعلان الجهاد ومهاجمة الدولة النصرانية للدفاع عن دينهم وأنفسهم وإخوانهم المسلمين.

وتوالى عدد من الحكام المسلمين المجاهدين الذين قتل أغلبهم في ساحات المعارك مع النصارى، وكلما سقط واحد منهم رفع اللواء آخر، حتى آل إلى مجاهد كبير وقائد عظيم من قادة المسلمين الأحباش ذلك هو الإمام أحمد بن إبراهيم القرين أو أحمدُ جران كما يسميه المسلمون هناك.

كان هذا الإمام ابنا لقس حبشي فاعتنق الإسلام وحسن إسلامه، ووجد نفسه في دولة إسلامية ضعيفة، يهيمن عليها النصارى، ويأخذون من حكامها الجزية عكس ما يدعو إليه الإسلام، فلم يستسلم لذلك بل عمل على تقوية المسلمين وذلك بالدعوة إلى الجهاد وإثارته في النفوس.

واستطاع الإمام أحمد توحيد الدولة الإسلامية في الحبشة، وكان أول عمل قام به بعد ذلك هو منع دفع الجزية للملوك النصارى، وعندئذ أصبح قيام الحرب بينهم أمر لا مفر منه، وعندما تحركت جيوش الحبشة النصرانية، واجتاحت مملكة المسلمين تصدى لها الإمام أحمد وهزمها شر هزيمة، وعندئذ اشتعلت في نفوس المسلمين حماسة الجهادفي سبيل الله والتي كمنت في نفوسهم وقتا طويلاً.

واستطاع الإمام أحمد تنظيم صفوف القبائل المسلمة في مهارة فائقة، وجعل منهم قوة ضاربة منيعة، وعندما تم له ذلك، أعلن الجهاد في سبيل الله، وحاول البعض من المسلمين اليائسين تحذيره من هذا الأمر، وأن مصيره سيكون مثل مصير الحكام السابقين الذين ماتوا في ساحات المعارك، ولكن الإمام أجابهم بأن الجهاد في سبيل الله لا يمكن أن يعود بالخسران على المسلمين.

وتوالت انتصارات المسلمين في الحبشة وتوالى سقوط المدن النصرانية في أيدي المسلمين، وسيطروا على وسط الحبشة وجنوبها في مدة وجيزة، وأقبل الأحباش على الإسلام يعتنقونه بأعداد كبيرة، حتى أن قائدًا من قادتهم قد دخل بجنده في الإسلام دفعة واحدة وكان عددهم عشرين ألفًا، ويذكر أحد المؤرخين أنه لم يبق

على النصرانية أكثر من العُشر وهم الذين فضلوا دفع الجزية للمسلمين.

وحاول إمبراطور الحبشة جمع جيوشه المنهارة فاجتمع له عدد كبير سار بهم نحو المسلمين وعلم الإمام بذلك فسار بجيشه مسرعا والتقى العسكران الإسلامي والنصراني، وبات المسلمون يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه، وقام الإمام أحمد في أصحابه وقال: توكلوا على الله واعتصموا به وأشيروا عليَّ: فقالوا: الجهاد بغيتنا ومُنانا، ولا نزال نصبر لهم على الضرب والطعن حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، ففرح بقولهم وبات الجميع مستعدين للقتال، وفي صباح يوم من أيام رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة من الهجرة بدأت المعركة بين المسلمين وأعدائهم، وأبلى المسلمون بلاء حسنا وصمدوا في وجه النصارى رغم قوتهم وكثرة عددهم، وأنزل الله النصر عليهم، فانهزم النصارى هزيمة قاسية، وقتل أكثرهم وانفتح الطريق إلى عاصمتهم أكسوم فاستولى عليها المسلمون وقضوا على بقية دولتهم.

هذا هو الفتح العظيم الذي حصل للمسلمين في الحبشة على يد أحمد القرين ـ رحمه الله ـ والذي حول الحبشة كلها إلى الإسلام.

ولكنَّ القوى الصليبية في ذلك الوقت لم تكن لتسكت على انهيار دولة النصارى الوحيدة في العالم الإسلامي، وكان الأحباش النصارى قد استنجدوا بالبرتغال وهم سادة البحار في ذلك الوقت، فأنجدوهم بجيش قوي حديث مسلح بالمدافع، التي لا يعرفها المسلمون الأحباش في ذلك التاريخ، ودخلت القوات البرتغالية الحبشة ورحب بها النصارى وقاومها المسلمون، وحدثت معارك عنيفة بين الصليبيين والمسلمين وصمد المسلمون أمامهم مدة من الزمن وكانت مدافع البرتغاليين تقصفهم بلا هوادة ولا رحمة، واستنجد المسلمون بالعثمانيين وتأخرت النجدات، وما وصل منها لم يكن ليغير ميزان القوى لضعفه وقلة تسليحه، وحلت الهزيمة بالمسلمين وقتل قائدهم أحمد القرين ـ رحمه الله ـ وبذلك تغير مجرى التاريخ في الحبشة، وعادت القوة للنصارى، واتخذت

هجماتهم طابعًا من القوة والوحشية، وخربوا المساجد وأماكن العبادة وأفرطوا في القتل والتنكيل، وأرغموا المسلمين على اعتناق النصرانية. وهكذا أبلى هذا القائد المسلم بلاءً حسنا في الجهاد، وقاد جيوشه في هضبة الحبشة ينشر الإسلام، وكان أكثر معاركه في شهر رمضان.

وإلى جانب نجاحه ـ رحمه الله ـ كقائد عسكري، فقد كان نموذجا للحاكم المسلم، يقيم الحدود، ويداوم على الفرائض، ويجلس ويلطف بالمساكين، ويرحم الصغير ويوقر الكبير، وينصر المظوم من الظالم حتى يرد الحق إلى مكانه، ولا تأخذه في الله لومة لائم.

المصادر والمراجع:

١ ـ شهاب الدين أحمد الجيزاني، الشهير بعرب فقيه: تحفة الزمان أو فتوح الحبشة، نشره رينيه باسيه، تحقيق فيهم محمد شلتوت ١٣٩٤هـ.

٢ ـ فتحي غيث: الإسلام والحبشة عبر التاريخ، مكتبة النهضة، القاهرة.

٣ ـ سير توماس. و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة القاهرة.

عوامل النصر

وهكذا وبعد عرض هذه المعارك والفتوحات المجيدة التي يزخر بها تاريخنا الإسلامي لنا أن نتساءل: ما الدروس والعبر التي استفدناها؟

لعل من أول هذه الدروس أننا نستطيع القول إن النصر كان قرين الجهاد، فما هزم المسلمون المجاهدون هزائم فاصلة، وما اندحروا أمام عدوٍ إلى الأبد، ولكنها صولات وجولات تنتهي بظفر المسلمين ونصرهم.

وعلى هذا فإننا نقرر ومن خلال دروس التاريخ وعبره أن النصر دائما حليف المسلمين، ولا يتخلف أبدًا إلا إذا تغيرت أحوال المسلمين، فمتى انهزم المسلمون فليراجعوا أنفسهم، وليفتشوا عن عوامل الهزيمة فيهم.

ولقد أوضح القرآن الكريم عوامل النصر للمسلمين وطلب منهم تحقيقها قبل لقاء العدو، وأثناء اللقاء، ووضع الله سبحانه وتعالى دستورا للجيوش الإسلامية لو تمسكت به وسارت عليه ما هزمها عدو، ولا قهرها قاهر، هذا الدستور يحدد شروط النصر وعوامله في آيات كريمات تضمنتها سورة الأنفال.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين * ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط**﴾ الآيات [٤٥، ٤٧]

ثم يقول عز وجل: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ الآية [٦٠] من السورة نفسها.

هذه عوامل النصر الحقيقية:

- الإيمان الصادق الخالص بالله سبحانه وتعالى، وما يستلزم ذلك من تكاليف وواجبات.
- الثبات عند لقاء العدو.

ـ الاتصال الدائم بالله سبحانه وتعالى بالذكر والدعاء .

ـ طاعة الله عز وجل ، وطاعة رسوله ﷺ .

ـ الابتعاد عن النزاع والشقاق .

ـ الصبر على المحن والآلام .

ـ الحذر والبعد عن البطر والرئاء والبغي .

أما الإيمان فواضح من خطاب الله في الآية ﴿**يا أيها الذين آمنوا**﴾ فمتى آمن الناس بربهم وطبقوا هذا الإيمان في حياتهم وواقعهم قولاً وسلوكًا وأصبح ذلك هو المحرك المؤثر في كل مناحي الحياة ، وعملوا على تحقيقه في أنفسهم ولدى غيرهم بالدعوة والجهاد ، فقد بدأوا السير في طريق النصر ، والتاريخ مليء بالأمثلة والنماذج بدءًا من سيرة المصطفى ﷺ ، وسيرة خلفائه من بعده ومرورًا بمعارك المسلمين وجهادهم عبر العصور ، وانتهاء بعصرنا الحاضر .

وأما العامل الثاني : فهو الثبات أمام العدو ، وأثبتُ الفريقين أغلبهما . والعدو يألم كما يألم المسلمون ، ويعاني أشدَّ مما يعانون ، ولكنه لا يرجو ما يرجون فإن المسلمين يرجون مدد الله وتثبيته للأقدام والقلوب ، وما الذي يجعل المسلمين لا يثبتون ، إنهم إن ثبتوا فهم واثقون من إحدى الحسنيين ، الشهادةِ أو النصرِ ، بينما العدو لا يريد إلا الحياة الدنيا ، فهو حريص عليها لا أمل له فيما سواها .

أما ذكر الله كثيرًا عند اللقاء فهو السبب الذي يربط المؤمنين بالله عز وجل وهو التعليم المطرد الذي حكاه القرآن الكريم عن المؤمنين في موكب التاريخ : هؤلاء سحرة فرعون بعد إيمانهم يقولون ﴿**ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين**﴾ [١٢٦] الأعراف .

وهذه الفئة المؤمنة من بني إسرائيل وهي تواجه عدوًّا يفوقها عددًا تقول : ﴿**ربَّنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين**﴾ [٢٥٠] البقرة . وهذا رسول الله ﷺ وأصحابه يقولون بعد أحد : ﴿**الذين قال لهم الناس**

إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانًا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [١٧٣] آل عمران.

ولذكر الله في المعركة وظائف شتى: فهو الاتصال بالقوة التي لا تغلب، والاتكال على من يملك النصر، وفي الوقت نفسه فذكر الله يجعل المؤمنين مستحضرين دائمًا حقيقة المعركة وأهدافها وبواعثها. فهي معركة لله، لتكون كلمته العليا لا للمغنم ولا للسيطرة ولا للاستعلاء القومي أو الوطني.

وأما طاعة الله ورسوله، فلكي يدخل المسلمون المعركة مستسلمين لله، لأمره ونهيه، لا يراقبون قائدًا أو أميرًا وإنما يراقبون من لا يخفى عليه من أمرهم شيء.

إن القائد البشري قد يغفل ويسهو، وربما تكون طاعته حاضرًا، فإذا غاب لم يلتزم بها من تحت يده، أما حين يكون الآمر هو الله سبحانه تعالى، فلا يسع فردًا مهما كان أن يستتر عنه فيفعل ما يشاء، ولذا كان قادة المسلمين قبيل المعارك يخاطبون جندهم ويقولون: «اليوم لا آمر ولا ناهي إلا الله فمن أراد أن يقاتل فليفعل وإلا فإن الله مطلع عليه» وكانت هذه الكلمات تزيد الجند حماسة وإقداما.

وأما العامل الآخر من عوامل النصر: فهو الاتحاد وعدم النزاع والشقاق، وهذا مبدأ إسلامي طالما دعا إليه القرآن الكريم، ووجه الرسول ﷺ أمته إليه فالنزاع والشقاق بداية الهزيمة وكسر الشوكة والخذلان والفشل.

والصبر عامل مهم من عوامل النصر، وصفة لا بدَّ منها لخوض أية معركة سواء كانت في ميدان القتال أو مع النفس، والصابر له ضمانٌ بالفوز والغلبة ذلك أن الله معه، ومن كان الله معه فلن يهزم، **﴿إن الله مع الصابرين﴾**.

أما آخر العوامل، وآخر التعليمات الإلهية للمسلمين: فهو عدم الخروج للقتال لأجل البطر أو الرئاء، أو الصد عن سبيل الله، فالهدف عظيم والغاية سامية: إنها خروج في سبيل الله، لإعلاء كلمته وتحقيق شرعه وإيصاله للعالمين. أما البطر والرئاء والصد فهي صفات المنهزم المغلوب.

ألم تخرج قريش يوم بدر لهذا الغرض؟ كما يقول أبـو جهل وقد طلب منه قومه العودة بعد نجاة العير:

«لا والله لا نرجع حتى نَـرِد بدرًا فنقيم ثلاثًا، ننحـر الجزور، ونُطْعَمُ الطعامَ، ونُسْقَى الخمر، وتعـزف القيان علينا، وتهابنـا العرب» وكـان عاقبة هـذا الهزيمة والذلَّ، لأن البغي والريـاء والصدَّ عن سبيل الله عاقبته معلـومة واضحة، وهي الخسران المبين.

ومهما كان هذا الاستعـداد المعنوي الإيماني فلا بدَّ أيضًـا من الاستعداد المادي المتمثل في القوة مهما كانت هذه القوة مختلفة باختلاف الأزمنة، إنه لا بد للإسلام من قوة مادية، فهي قرينة الجهاد. وقـد جاءت كلمة «قوة» في الآية نكرة لتلائم حال المخاطبين في كلِّ زمان. إنه لا بدَّ للمسلمين من الأخذ بأسباب القوة، ولن يستقيم أمر العالم وتستقر أوضاعه. والمسلمون ضعفاء، وإذا تحول هذا الضعف إلى قوة حينئـذ ستجد الاستقرار والأمن في كـل مكان. هذه سنـة الله عز وجلَّ، فقد وُجِدت أمة الإسلام لتقود وترشد ومكانها الحقيقي مقدمة الركب لا ساقته. هذه عوامل النصر كما أوضحها كتاب الله عـز وجل، ووالله لو حققها المسلمون في عصرنا هذا لما حلَّ بهم ما حلَّ من هزائم مـروعة. والتاريخ خير شاهد على ما نقول.

المصادر:

١ ـ ابن كثير: التفسير، سورة الأنفال.

٢ ـ سيد قطب. في ظلال القرآن، سورة الأنفال.